النووي في مجلّد، وشرح مختصر أبي شجاع في مجلّد، وشرح الأسماء الحسنى في مجلّد، وتلخيص مهمات الإسنوي في مُجلّدين، وقواعد الفقه في مُجلّدين. وله في التصوُّف مصنفات. و(مات) ليلة الأربعاء منتصف جمادى الآخرة سنة ٨٢٩ تسعٍ وعشرين وثمانمائة.

(١١١)

(بِيبَرْسُ العُثماني الجَاشِنْكِير الملك المُظفَّر)[١]

كان من مماليك المنصور قَلاون، وترقَّى إلى أن جعله أمير طبلخانة. وكان أشقر اللون مستدير اللحية موصوفاً بالعقل التام والفقه. وهو من جملة الأمراء الذين تعصّبوا للناصر حتى أقاموه في السلطنة، وبعد استقراره صار صاحب الترجمة من أكابر أمرائه. وولي الأستاذ دارية له. ثم قام بنصرة الناصر مرة أخرى وأعاده إلى السلطنة وصار مدبراً للملكة هو وسلار، فكان هذا الأستاذ دار، وسلار نائب السلطنة. وعظم قدره ثم خرج للحج بعد سنة (٧٠١) وصحبه كثير من الأمراء، وحجّ بالناس فصنع من المعروف شيئاً كثيراً. ومن محاسنه أنه قلع المسمار الذي كان في وسط الكعبة، وكان العوام يسمونه سرّة الدنيا، وينبطح الواحد منهم على وجهه، ويضع سُرّته مكشوفة عليه ويعتقد أن من فعل ذلك عتق من النار، وكانت بدعة شنيعة. وكذلك أزال الحلقة التي يسمونها العروة الوثقى. وهو الذي كان السبب في القيام على النصارى واليهود حتى مُنعوا من ركوب الخيل والملابس الفاخرة. واستقر الحال على أن النصراني يلبس العمامة الزرقاء، واليهودي يلبس العمامة الصفراء في جميع الديار المصرية والشامية. ولا يركب أحد منهم فرساً ولا يتظاهر بملبوس فاخر ولا يضاهي المسلمين في شيء من ذلك. وصمَّم في ذلك بعد أن بذلوا أموالاً كثيرة، فامتنع، وضاق بهم الأمر جدّاً حتى أسلم كثير منهم، وهُدِمت في هذه الكائنة عدة كنائس. وأبطل عيد الشهيد وهو موسم من مواسم النصارى كان يخرجون إلى النيل فيلقون فيه إصبعاً لبعض من سلف منهم يزعمون أن النيل لا يزيد إلّا إن وضع الإصبع فيه. وكان يحصل في ذلك العيد من الفجور والفسق والمجاهرة بالمعاصي أمر عظيم. وكان صاحب الترجمة قد غلب هو وسلار على سلطنة الناصر، ولم يبق بيده إلّا الاسم، وكان يبالغ في التأدب مع رفيقه سلار، فلما حجروا على الناصر التصرف في المملكة، وصار معهما صورة بلا حقيقة، أظهر أنه يريد الحجّ ثم خرج وعدل من الطريق إلى الكرك وأرسل إلى الأمراء بمصر بأنه قد ترك الملك فاضطرب الأمراء عند

(١) ترجمته في: النجوم الزاهرة: ٨/ ٢٣٢؛ السلوك للمقريزي: ٢/ ٤٥؛ الأعلام: ٢/ ٧٩.

ذلك وتشاوروا في من يستقر في السلطنة مكانه فحسَّن سلار لبيبرس أن يتسلطن فأجابه إلى ذلك بعد تمنع كبير. وأفتاه جماعة من العلماء بجواز ذلك، فتسلطن وتلقب بالمظفر، وكتب عهده عن الخليفة، وركب بالعمامة المدورة، والتقليد على رأس الوزير. وناب عنه سلار على عادته وأطاعه أهل الشام وذلك كله في شهر شوَّال سنة (٧٠٨). ويقال إن التشاريف التي أعطاها الأمراء وغيرهم كانت ألف تشريف ومائتين، وأبطل ضمان الخمر من طرابلس، وكان ذلك من حسناته. فلما كان وسط سنة (٧٠٩) خامر عليه جماعة من الأمراء وتوجهوا إلى الناصر فأخذوه من الكرك فتوجهوا معه إلى دمشق، وساروا في عسكر كثير، فلما تحقّق حركة الناصر جرّد إليه عسكراً كثيراً فخامروا وانهزموا، ثم لم يرسل أحداً إلّا خامر عليه حتى صهره زوج ابنته. وفي غضون ذلك زيَّن بعض الفقهاء لبيبرس أن يجدد له الخليفة عهداً بالسلطنة ففعل وقرأ ذلك، وأرسل بنسخة إلى الأمراء الخارجين عليه. وكان أوله (أنه من سليمان وأنه بسم اللَّه الرحمن الرحيم) فلما قُرئ على كبيرهم قال: ولسليمان الريح. وأمر بقراءة هذا العهد على المنابر يوم الجمعة. فلما سمعه العامة صاحوا فمنهم من يقول: نصر اللَّه الناصر، ومنهم من يقول يا ناصر يا منصور. واتفق أنه نصَّب أميراً في شهر رمضان ومرّوا به من وسط القاهرة عليه الزينة، فكان العامة يقولون يا فرحةً لا تتم وكان الأمر كذلك. ثم أشار عليه جماعة ممن تأخر معه أن يشهد عليه بالنزول عن السلطنة، ويتوجه إلى أطفيح، ويكاتب الناصر ويستعطفه من هنالك، وينتظر جوابه. ففعل وخرج عليهم القوم فسبّوه وشتموه ورجموه بالحجارة ففرَّق فيهم دراهم فلم يرجعوا، فسلَّ مماليكه عليهم السيوف فرجعوا عنه. فأقام بأَطفيح يوماً ثم رحل طالباً للصعيد فوصل إلى إخميم. فقدم عليهم الأمان من الناصر، وأنه أقطعه صيهون فقبل ذلك ورجع متوجهاً إلى غزة. فلمَّا وصل غزة وجد هناك نائب الشام وغيره فقبضوا عليه وسيّروه إلى مصر، فتلقاهم قاصد الناصر فقيّده وأركبه بغلاً حتى قدم به إلى القلعة في ذي القعدة. فلما حضر بين يديه عاتبه وعدّد عليه ذنوباً، فيقال إنه خُنِق بحضرته بوتر حتى مات، وقيل سقاه سُمّاً. وكان موصوفاً بالخير والأمانة والتعفف وكان قتله في شهر ذي القعدة سنة (٧٠٩)، وقد كان تعكَّست عليه الأمور، وكلّ ما دبّره عاد عليه بالخذلان.